

٧ . حديث مع غلوب باشا ..

قضيتُ عشيةَ السفر من بغداد وأنا أعددُ أمتعتي وأحررُ الرسائل الى الولايات المتحدة . وإذ كنتُ لا أعرفُ على وجه التحقيق المواطنَ التي سيُجاز لي زيارتها ولا المواقيت التي سأزورها فيها فقد اخترتُ فندق فيلاديلفيا في عمان قاعدةً لي وعنواناً .

وينبغي ان نلاحظ ان فندق فيلاديلفيا هذا لم يسمَّ على اسم المدينة الاميركية ، ولكن على اللقب القديم لمدينة عمان . ففي عصر السالوقيين الذين خلفوا الاسكندر حكم بطليموس فيلاديلفوس هذه الديار ، وصارت عمان تعرف بفيلاديلفيا . اما في الاصل فكانت عمان تدعى « ربة عمون » ، وذلك عندما سكنها المؤابيون اول ما سكنوها حوالي عام ١٣٠٠ ق.م .

وفي الميقات المحدد وصلتُ وحقائبي الكثيرة الى ساحة وزارة الدفاع حيث التقيتُ ، صديقي العقيد مكي والزعيم عبد المطلب بك . ولم يكادا يلتقيان نظرةً على حقائبي حتى هالتها كثرتها ، ولكنهما اخفيا دعرهما ولم يقولوا شيئاً .

تم ان العقيد مكي مضى ، تاركاً اياي مع الزعيم عبد المطلب و« اقدس » الفتاة الصحفية التي شقت طريقها عبر القافلة العسكرية

الى ساحة الوزارة . وكانت اقدس ، في ما يبدو ، راغبة في ان
تضي الى الجبهة ايضاً لتزود صحيفتها بأنبيائها ، ولكنها لم تلقَ
تشجيعاً من الزعيم .

وبعد قليل رجع العقيد مكبي في سيارة سيفر وليه جديدة من
نوع « ستايشن واغون » ، وألح عليّ في الدخول . وترجّلت
السائق ، وهو عربيّ اشترى مكشّراً عن اسنانه ، فحمل حقائبي
واخذ يكدها جميعاً ، حتى آلتى التصوير ، على الرف . فما كان
مني الا ان انقذت هاتين الآلتين في حين بقيت الآلة الكاتبة في
موضعها مع سائر الامتعة . ومن ذلك الحين لم تعد تلك الآلة ما
كانت من قبل . وتبعني العقيد مكبي ، وهو رجلٌ رقيق
قوي البنية بانغ النشاط ، فجلس الى جانبي في المقعد الخلفي . اما
في المقعد الامامي فجلس السائق وضابط من سلاح المشاة برتبة
نقيب . وكان هذا الضابط لا يتكلم غير العربية وبضع عبارات
انكليزية ، وكان ينفق معظم الوقت ، خلال رحلة الخمسة ميل ،
وعينه محدّقتان الى الطريق .

واخيراً ، وبعد ساعة انقضت عليّ وصولي الى الوزارة ، تهيأت
القافلة للمسير . . فخرج الزعيم عبد المطلب بك ، وسط الحشود ،
وصافحي متمنياً لي رحلة طيبة وصيداً سميناً . ولوّحت لي اقدس
وهي في ثياب الترحل الانيقة وقد بللت الدموع خديها ، مودعةً
إياي في حرارة . ودوّت الصافرات ، وهدرت الموتورات ،
وصدحت الابواق وسط مجموعة متشابكة من الابعازات
العسكرية ، وانطلقت بنا القافلة . والى الامام ، كان في

ميسوري ان اوى خطأ افعرانياً طويلاً من السيارات الخاكية
ينعطف ، مجتازاً الحرس الرافعين أيديهم بالتحية العسكرية ، نحو
الطريق المؤدية الى الجنوب . وخلقنا كان خطاً من ناقلات الجند ،
وكانوا مهتسمين هاتفين يلوحون بأيديهم في حماسة بالغة . وكان
بعضهم قد وضع فوق آذانه وروداً أو أزهاراً أخرى . وكان
الموكب بهيجاً مرحاً .

ولسوء طالع الجند كانت الطريق الى الجنوب غير آهلة بالسكان ،
نسبياً . ومن هنا لم يلوّح لنا فيما انطلقت بنا السيارات بسرعة
اربعين ميلاً في الساعة غير نفر من الاطفال الصغار وسائقي الخير .
وعبرنا الفرات ، جنوبي الرمادي ، واجتازنا مطار الحبانية البريطاني ،
ثم انطلقنا عبر الصحراء الى الرطبة حيث قال العقيد مكبي اننا
سنبيت تلك الليلة .

وكان الجنود الذين تقلتهم القافلة العسكرية قاصدين الى الخطوط
العراقية ليحلوا محلّ بعض الكتائب التي انقضت عدة أشهر على عملها في
الجبهة أو ليعززوا بعضها الآخر في المواطن التي اشتدّ فيها الضغط
الصهيوني . وكانت معظم السيارات شاحنات كبيرة ، ولم يكن
أيّ منها مسلحاً . وحين سألت العقيد مكبي عن ذلك هو كتفبه
وقال انه لا يرى ما يوجب التزام حالة الاستعداد ما دامت القافلة
لا تزال في الاراضي العراقية . حتى اذا بلغنا شرقي الاردن وفلسطين
وعلمنا ان العدو يقوم بنشاط جوي فعندئذ نسارع الى وضع
المدفعية المضادة للطائرات على قدم الاستعداد . ولكن العقيد كان
يتوقع ان تكون الرحلة آمنة مطمئنة .

و كنا قد اجتزنا الفرات حوالى الظهر ، وغدت الرحلة عبر الصحراء رتيبة ممة . وكانت الصحراء موحشة كثيرة الغبار لا تقع العين فيها ، وفي احوال نادرة ، الا على قرية بعد قرية قائمة قرب ينبوع او واحة . وكانت الشمس حارة والنهار بالغ الجفاف ، وكانت ريح باردة تهب من الشمال فتعبت باوراق الثبات وبالغبار وتديرها في سرعة بالغة فوق شريط الطريق الاسود . وكان ثمة خوف من ان تهب علينا ، عما قليل ، عاصفة رملية ، ولكن ذلك الحرف ما لبث ان تلاشى بعد ان تقضت ساعات الاصيل وئيدة مثقلة الحطى . وكنت قد عرفت العواصف الرملية في بغداد ، وشاركت جمهور الناس في كرهها . لقد كانت ، في العادة ، مقدمات تمهد ليوم او يومين من ايام المطر ، ولكنها كانت في ذات نفسها مجلبة لاشد الانزعاج . انها تنطلق سحبا كبيرة داكنة من الصحراء ، فتستغرق بغداد وكأنها بطانية ضخمة ذات مسام ، تنفذ الى كل شيء .

و كنت اسارع الى آلتى التصوير ، عند اول انذار باقتراب العاصفة الرملية ، فألقها بالبطانيات نفأ محكماً ثم اضعها في حقيبة خشبية صنعها لي نجار السيلفرستار ، واحيط هذه الحقيبة بأوراق الصحف وما اليها خوف الهباء الذي يوشك ان يغشى سماء بغداد ، ويبعث في ارجائها رائحة تخييل للناس وكان مكنسة هائلة من مكائس السجاد قد افرغت احمالها فوق رؤوسهم . ليس هذا فحسب ، بل ان العاصفة الرملية من شأنها ، بعد ان يعقبها المطر ، ان تجعل الطرق زلقة شديدة الخطر ، وارصفة الشوارع غير حالحة

للسير حتى يعاودها المطر فينظفها من جديد .

ولكن أسوأ ما في العاصفة الرملية رائحتها ، واذكر ان بعض العواصف الرملية كانت تسد منافذ الافق حتى ليتعذر علي ان اتبين نهر دجلة ، وليس يفصله عن نافذتي غير عشرين من الياردات . اما رائحة الغبار فكانت تنفذ الى الهواء والطعام بل الى الجعة ايضاً حتى ليستشعر المرء ان النظافة تعوزه . ولم يكن في تذكُّر المرء أن العواصف الرملية كانت النتيجة الأخيرة لتدمير المغول نظام الري وبذلك خربت الصحراء المتجاوزة حدودها موارد الغذاء في البلاد بل أتلفت المناخ أيضاً - اقول لم يكن في تذكُّر ذلك ما يخفف كثيراً من وطأة البلاء . وعندى أنه لو قُدِّر للقنوات والسدود القديمة أن تنشأ من جديد اذن لتطور مناخ بغداد وغدا اكثر اعتدالاً ، واذن لكان من الجائز أن تخففي العواصف الرملية أيضاً .

وفي الطريق الى الرطبة تضاءلت امكانية هبوب العاصفة ، ولكن قوة الريح بدت و كأنها تتعاضم فيما أخذت الطريق ترتفع ارتفاعاً تدريجياً بطيئاً . ذلك بأن بادية الشام تنهض فوق سطح البحر ، وحين تؤذن الشمس بالمغيب مصحوبةً بريح هابّةٍ من الشمال تهبط الحرارة هبوطاً كبيراً . حتى اذا اقتربنا من الرطبة لاحظت أن الاشجار المشتتة هنا وهناك كانت منحنية نحو الجنوب تحت ضغطٍ من ريح الشمال ما ينقطع . وكانت المنازل دائية السقوف ، منفتحةً على الناحية الجنوبية ، وكانت الأنوار لا تبدو إلا من وراء نوافذها وأبوابها الموصدة . ولم تعد الكلاب

والدجاج تعدو في محاذاة الطريق المعبدة ، مؤثرةً ان تظل قريبةً من بيوت السكان الاكثر دفئاً .

وقلعة الرطبة ، التي عافت تقدم القوات الاردنية عدة أيام أثناء ثورة رشيد عالي ، محوطة بمجموعة من الشكنات . وواصلت القافلة سبيلها فيما انعطفنا نحن حول الطريق واجتازنا بسلسلة من مراكز الضباط القائمة قرب حديقة صغيرة ولكنها موحشة . وكانت الريح عنيفة قاسية حاملةً ذرات قارسة من الرمل . ولقد رحبت بنصيحة العقيد مكّي حين أوعز اليّ بأن اجتنب التعرض للريح فيما كان السائق يخرج حقائب من السيارة . وكان النقيب الذي يرافقتنا قد اختفى في الحمال ، ليعود بعد دقائق قليلة فيصحبني الى حيث اقابل قائد الموقع ورجاله . وكانوا جميعاً لطفاء جداً . وكانوا مجموعة من المقاتلين الاشداء الذين خسرستهم الصحراء ، وكانوا يتكلمون قليلاً من الانكليزية او الفرنسية او الالمانية يُردفون به عربيتهم ، وكان العقيد مكّي يتوجه لي كلامهم الى لغته الالمانية التي كان يعسر عليّ فهمها في بعض الاحيان بقدر ما يتعذر عليّ فهم لسانه الوطني .

ولكنهم رحبوا بي ، وافرّدوا لي وللعقيد مكّي مبيتاً في غرفةٍ مربعةٍ مطلية بالكاس يبلغ طولها نحواً من عشرين قدماً وعرضها نحواً من خمسة عشر . وكانت لتلك الغرفة نافذة شمالية زوّدت بوقاء من الريح تعوزة الفعالية فكان الغبار ينقذ من خلاله بين الفينة والفينة فيما نعت العاصفة بزجاج النافذة .

وكان في الغرفة سريران عاريان ، فلا فرش ولا بطانيات ،

ولكن مجرد غطاءين ليس غير . ولم اكد اري الى ذلك حتى
ايقنت انه كان يتعين عليّ ان احمل ، الى جانب آلي التصوير
والآلة الكاتبة ، فراشاً يستريح جنبي اليه ! ولكن الضابط الذي
رافقنا في هذه الرحلة ما لبث ان برز حاملاً بعض البسط التنظيمية
ونشرها فوق السرير العاري . وبعد لحظة اقبلت البطانيات
(ولعلها انتزعت من فرش الضباط العراقيين المرتجفي الاوصال) ،
ووقفت في وسط الغرفة وأنا اتنفس انفاً منظورة وارنو الى
الميزان لأرى اين استقرّ الزئبق فيه . وفي الخارج ، كان البرد
قارساً ، والظلام دامساً ، وكانت الرياح تعوي حول زوايا الابنية .
وكان ازعج شيء لديّ ان افكر في ضرورة الخروج من ملابسني
الدافئة لاحشر نفسي في ذلك السرير الذي يذكر المرء بالتقطب
الشمالي .

وفي هذه اللحظة اقبل الجيش العراقي لنجدتي . فاذا بباب غرفتي
بعض الجنود يحملون كوانين فولاذية ضخمة ذات قوائم يبلغ
ارتفاعها نحواً من ثمانية عشر إنشاً ، مثقلة بركام من اغصان الصفصاف .
ثم انهم أضرموا النار فيها ووقفوا حولها ، مستشعرين شيئاً من
الحسد ، باسطين ايديهم الى الدفء الذي بدا وكأنما يُهدر في هواء
الصحراء هدرأ . وسألت العقيد مكي - وكان ينزع ثيابه في
لامبالاة اسبارطية بالبرد القارس - لماذا لا يوعز الى الجنود بأن
يحملوا اليها جمرّة أو جمرتين ، فقال ان ذلك بعينه هو ما يفعلون .
وحين سألته لماذا لا يحملون النار الى داخل الغرفة قبل ان
تخمد قال :

لأنهم لو فعلوا إذن لُقتل بالغاز الخائق في خمس عشرة دقيقة .
والتمت جراباً بالمانية ، ولكنني لم أوفق . وفي الوقت
نفسه كانت حزم الصفصاف قد استحالت الى مهادٍ وضاء من الفهم .
وهنا ادخل الجنود النار الى الغرفة ، بعد أن أُجرت من قدرتها على
الايداء ، ورضعوها على الأرض . وما هي الا فترة يسيرة
حتى انتشرت الحرارة في الغرفة وعمها الدفء . فما كان مني الا ان
نزعت ملابسني في سرعة قليلة الاحتشام واستسلمت للرقاد بعد
دقائق قليلة .

وتشقق الفجر بصرامة منجمدة كصرامة جبلٍ من الجليد
متبلور . كان انفي الذي تشوّف الى الهراء الطلق بحكم جوعه الرهيب
اليه يجزني من البرد ، وكانت انفاسي تتدلى مثل سحابة تنشر الظلمة
على الغرفة فلا اكاد أرى منها غير بحمرة استنفدت نفسها ،
وتراكم رمادها اسود مقروراً فوق مهاده الفولاذي البارد .
وتطلعت عبر الغرفة التماساً للعقيد مكبي ، ولكن سريره كان خالياً .
والواقع ان العقيد لم يكن قد استيقظ من رقاذه فحسب ، بل
كان فراشه محزوماً ايضاً . وفي قنوط مرير اقصدت البطانيات
الدافئة ولبست بنطلوني وجوربي وحذائي . وكان في الغرفة مغسلة
فرنسية نموذجية : حوض من نحاس فوق قاعدة ثلاثية القوائم ،
ووعاء للصابون واذرعٌ للمناشف . ولكنها لم تكن تحتوي على
أكثر من غشاوة رقيقة من الجليد . ورفعت صوتي منادياً ولكن
أياً من الجند لم يلب النداء . وكنت قد لبست ، الآن ، قميصاً ،
وطوقت حنجرتي بربطة عنق غير مناسبة ، وارتديت كفتوتين من

الصوف وسترة جلدية . وكانت ملابسي باردة ، وكذلك كانت
يادي وقدماي . ولم اكن قد غسلت وجهي ، او خلقت ذقني .
ولم ابالِ بذلك ، ولكنّ في لم يكن قد غُسل ايضاً ، وهذا ما
ازعجني اكثر الازعاج .

و كنت على اهبة ان اطلق صيحة هادرة حين وفد احد
الجنود ، وقدّم اليّ فنجاناً من القهوة . إنه لا يشبه تلك «الكشابين»
التي يقدمونها اليك في المملكة العربية السعودية وليس في قعرها غير
مقدار ملعقة صغيرة من قهوة معطرة ، ولا فناجين القهوة التركية
الصغيرة المملأى بطين البن المسحوق المحلى ، الشائعة في معظم بلدان
الشرق الاوسط . ولكنه فنجان انكليزي كامل من فناجين طعام
الصباح ينبعث من جنباته الدخان ، فهو أحلى من الأثم وأشدّ
حذكة من الليلة التي فاتت . وجرعته جرعاً ، محرقاً شفتي ولساني
ومزبلاً عدة إنشآتٍ مربعة من انسجة الجلد عن حنجرتي ، ولكنه
كان اهلاً لذلك .

وفي الوقت نفسه ، كان الجندي قد ملأ الخوض النحاسي بالماء
الحار ، ووضع قطعة من الصابون ومنشفة وموسى حلاقة استعيرت
في ما يظهر من احد الضباط أو الجنود . والواقع ان حقيبتي العسكرية
كانت تنطوي على موسى وشيء من الصابون ومنشفة ، و كنت
على وشك ان اقدر امكانيات مضيبي المحدودة فأحجم عن اصطناع
ما قدموه الي ، ولكنني تمثت نفسي وانا اعيد منشفتي المنجمدة
الى الحقيبة العسكرية ، فتماظمني الأمر ، واطرحت الفكرة .
حتى اذا خرجت من « مستودع الثلج » نظيف الوجه ، حليق

اللحية ، 'مفَرُشِي الاسنان' ، كان الفطور قد أُعدَّ . فقادني الجندي الى مقرّ الضابط حيث كانت نارٌ رائعة ، نارٌ نبيلة حقاً ، تتأجج في المستوقد ، وحيث اقيمت موائد طويلة لشراب الصباح . وكانوا قد افردوا لي مكاناً قرب القائد ، ووضعت امامي طبق يحتوي على شرائح من لحم الضأن ، وجبن ابيض ، وزيتون ناضج ، ونصف خسة . وكان يقوم الى جانب الطبق رغيف عربي اسمر القشرة مستدير يبلغ قطره نحواً من عشرة إنشات ، وكان ما يزال ساخناً وكاننا خرج من الفرن اللحظة . واذهلني الطعام بعض الشيء ، اول الامر . ثم استغرقتُ في التهامه . وتصيب من من جبيني قليل من العرق ، فنزعت سترتي الجلدية . واتى العقيد مكّي على طبقه ، وتحدث الى قائد الموقع حديثاً قصيراً . ثم قدمنا احترامنا الى الضابط وخرجنا التماساً للدفع تحت أشعة الشمس . فلم يكن الجوُّ هناك قارساً شأنه في الداخل .

والطريق القائمة غربي الرطبة تقود الى الحدود الاردنية ، على مبعده سبعة اميال تقريباً ، ثم تتصل بمحطة انابيب حيفا رقم ٣ . وكان خط الانابيب ، الذي بُني خلال الايام المبكرة من الحرب العالمية الثانية ، ينقل الزيت الخام من احواض الخزف ، في كركوك ، الى حيفا ، عبر مسافة مترامية تبلغ نحواً من ستمئة وستين ميلاً . ولكن العراق أغلق الصمامات في محطة الضخ ، في نوار ١٩٤٨ ، فانقطع تدفق الزيت على حيفا . وثمة خط آخر ينقل الزيت من كركوك الى طرابلس ، عبر مسافة بمائة تقريباً . ويفكر المسؤولون في ان يعوضوا

على الخزانة العراقية ما أصابها من خسارة ، إثر اغلاق الصهومات ،
بان يضاعفوا مقدار النفط المنقول بواسطة خط الأنابيب
طرابلس . وأياً ما كان ، فقد أقسم العرب ليحرموا
الاسرائيليين من نفط الشرق الاوسط وبذلك يشلون مصانع
التكرير في حيفا ، التي يملكها البريطانيون ويسيطر عليها
الاسرائيليون * .

وانما تقوم محطات الضخ التي تساعد على دفع الزيت الى
مستودعاته الساحلية على طول خط الأنابيب ، ويفصل
الواحدة منها عن الاخرى سبعون ميلاً تقريباً . والحق ان
تلك المحطات قرى صغيرة تضم مهندسي النفط ومساعدتهم
وأسرهم . وفي المحطة الثالثة ، 3-11 مطار كبيراً ما كان
يجتمع فيه الملك عبد الله عاهل شرقي الاردن الى ابن أخيه الامير
عبد الآله الوصي على عرش العراق . وتذهب الاخبار الى ان
عدة مناقشات حامية جرت هناك بين السيدين الملكيين .
وعلى الرغم من ان بغداد وعمان ظلنا تشكلان معاً جبهة
مشتركة ، الا ان آثار التصدع في تلك الجبهة كانت بارزة
على نحو واضح جداً .

والواقع ان الوصي العراقي ، يدعمه ضباط جيشه ، كثيراً

* استعاضت اسرائيل عن النفط العراقي ، بادىء الامر ، بالنفط
الروماني . ولكن تكرير النفط الروماني في مصافي حيفا ما لبث ان
انقطع عام ١٩٤٩ . ومن ذلك الحين اخذت ناقلات الزيت البريطانية
تحمّل الزيت من ذاترويل الى حيفا .

ما كان محتج على مسلك الملك عبد الله في الحرب الفلسطينية .
وفيا كنت اجهل آنذاك ان كثيراً من الزعماء العرب كانوا
يعتبرون الملك عبدالله مسؤولاً عن الانسحاب الاردني الغريب
من ميدان القتال ، كان كل امريء في الجيش العراقي
يعرف ذلك ، في ما يبدو . ولقد سمعته من كثير من رجال
هذا الجيش مرةً ومرةً .

ولكن لم يكن ثمة شيء في المحطة الثالثة الآن . فقد جردت
محطة الضخ من آليتها ما خلا بعض الآلات المثبتة على نحو
يتعذر معه نقلها . وكانت الأبنية والمنازل الحالية اشبه ما
تكون باحدى مدن الاشباح في مناطق التعدين القديمة في
« الغرب » الاميركي . وكان المطار لا يزال قائماً ، وكانت
الرياح تعبث بالجهاز الممزق الذي كان يصطنع فيه لتعيين
اتجاه الرياح . ولكن الحدائق القائمة في مقدمة كل من
المنازل لم يبق منها غير مجموعة فوضوية من النباتات الصغيرة
الذابلة .

وحيث غادرنا المحطة الثالثة اجتزنا عدداً من الكشبان غير
المستوية ، كانت رمليةً اول الامر ثم انقلبت بعد ذلك
صخرية بازالتيه . * ولم يكن هنا شيء . لا حياة البتة .
كنا من قبل نوى بين الفينة والفينة ثعلباً ، او هرة برية ،
بل وحتى ابن آوى او بضعة غزلان . اما الآن فليس
ثمة شيء . لا عشب ، ولا رمل . ولكن هذا الدليلُ

* البازالت : ضرب من الصخور البركانية السوداء . [المغرب]

الانقلابي على جيولوجية مشوهة ، ليس غير . لقد كاد ذلك ان يكون مروّعاً .

ففي وقت ما ، لعدة آلاف من السنين خلت ، في اغلب الظن ، نسفت الطبيعة من طريق سلسلة من الانقباضات الهائلة قشرة الارض الغرانيتية في مساحات تقدر بمئات عديدة من الاميال المربعة ، مطلقاً البازالت السائل نحو الهواء وكأنما ينبع من عين جحيمية ما . وليس من ريب في ان ايما مدينة كانت قائمة هناك خليقة بان تكون قد دمرت تدميراً ، لانه ما من شيء يستطيع ان يجيا وسط طوفان من الغرانيت والبازالت الذائبين المنقضين من السماوات التبخية .

وهنا ذكرت ما كنت قرأته في بعض المصادر عن هجرة غربية تدفقت موجاتها من الشمال الغربي على «سومر» حوالي سنة ٣٠٠٠ ق. م. ، وتساءلت ما اذا كان اولئك المهاجرون الذين انتهوا الى العراق وليس لهم ما يكشف عن هويتهم أو ثقافتهم هم انفسهم سكان هذه المنطقة الاقدمون الذين وفقوا الى النجاة من ثورة الطبيعة التي اضطرت نيرانها هنا في يوم من الايام؟..

وطوال ستين ميلاً تقريباً تقدمنا عبر هذه الاراضي التي يطلق عليها العرب اسم «إقليم الاموات» لننتهي آخر الامر الى المحطة الرابعة (H-4) فالمحطة الخامسة (H-5) ، فالمنطار البريطاني القديم في «الفرق» . وهنا اتجهنا جنوباً في محاذة الخطوط الامامية قرب بحيرة طبريا ، لنصل بعد ساعة أو نحوها الى مقر قيادة القوات العراقية في الزرقا عند

نهر الزرقاء التاريخي الذي كان يدعى من قبل ' « يبوق » Jabbok
وفي الزرقا استجوبت استجواباً موجزاً ، ولكن العقيد
مكي شهد لي لدى القائد ، مقدماً اليه اوراقاً تتصل بي من
غير ريب ، لان القائد لم يكذب يطلع عليها حتى اخذ يعاملني
في ودف غامر . ثم انه سألني ، في انكليزية ممتازة ، عن
خططي ، وتطويع لتزويدي بأسباب المواصلات وبكل ما
يلكه من وسائل تبسّر لي مهمتي . بيد اني كنت راغباً ،
تلك اللحظة ، في ان امضي الى عمان قبل ان يدر كنا الليل .
وتقع الزرقا على ارتفاع بضع مئة قدم عن سطح
البحر . وكان المطر قد اخذ في التهطال ، ليازجه
البرد بعد ذلك . ولم اكن ادري على وجه اليقين ما المسافة التي
تفصلنا عن عمان ، ولكن تراءى لي ان علينا ان نقصد اليها
مهما كلف الأمر . وأخيراً أنجز العقيد مكي مهامه ورجعنا
الى سيارتنا ، في شيء من تصلّب الأوصال ، فتعثرتنا بالتي
التصوير وبكيس ورقي مليء بلحم الضأن المحمّر كان بعضهم
قد قدمه الى العقيد في الرطبة . وكانت اشعة الشمس ،
والحرارة المنبعثة من السيارة قد أسالت الدهن فتسرّب من
خلال الكيس الورقي ورسّع أحسن سترة من سترات
العقيد . فلم يكذب يري الى ذلك حتى أخذه الحلق والقي
بكيس اللحم بعيداً على الطريق حيث وجدته بعض الكلاب
والتهمته . وكم ندمت على أننا لم نحفظ به لبعض اللاجئين .
وخلال المئة الميل التي اجتازناها كانت خيام اللاجئيين

المرتجلة تؤلف مشهداً يتكرر في تعاقب متعاضد على طول الطريق . والحق ان ما وقع بصري عليه مرة ، وحسبته لأول وهلة كتلة من ثياب ممزقة بالية ، لم يكن كذلك . ولفت نظر العقيد مكى الى ما رأيت ، فاوقف السيارة وهبط منها هو والسائق وراحا ينحصان «الصرّة» . لقد كانت كل ما تبقى من امرأة عربية وطفلا . وكانت الثعالب وبنات آوى قد التهمت لحمها ولم تغادر منه غير القليل . وكذلك عثرنا على « صرر » اخرى تثير الشجون ولكننا لم نحاول الكشف عنها . ولم يكن فيها جميعاً أيما اثر من آثار الحياة . والواقع أننا ما شاهدنا خيام اللاجئين الفلسطينيين الذين آثروا ان يضربوا في الصحراء متجهين الى بغداد على ان يموتوا جوعاً في خيمات شرقي الاردن وسورية المكتظة باللاجئين ، إلا بعد أن اجتزنا المحطة الرابعة (H - 4) . ولكن قلة قليلة منهم وفقت الى ان تبلغ بغداد . وكان اولئك الذين رأيناهم الآن ، قانعين بمجرد الجلوس امام خيامهم والتحدث اليها . ان أحداً منهم لم يلمس منا عطاء أو صدقة ، ولكن الجنود العراقيين القوا اليهم ببعض الطعام ، وبعض الملابس ، من القافلة العسكرية . وفي الزرقا لم نجد أيّاً من اللاجئين . وكان أقرب خيماتهم اليها ذلك الذي يقوم في انفرق . ولاكني علمت أنني سوف ألقى آلافاً منهم في عمان . فقد أخبرني العقيد مكى أن عدد سكان شرقي الاردن تضاعف بالمعنى الحرفي

لكلمة ، خلال الاسابيع القليلة التي عقت مجزرة دير ياسين ،
عندما تدفق على الحدود الاردنية ، اربعمئة الف لاجيء
عربي من فلسطين . والتجأ عدد آخر من الفلسطينيين يقدر
بمئات الألوف الى الخطوط المصرية والى سورية . وهناك في
الأردن حشروا جميعاً في مختلف الامكنة التي كان في
مستطاعها ان تؤويهم . فعاش بعضهم في مغاور للوحوش
كان الرومان القدماء شقوها في منحرجهم الذي شيدوه في
عمان ، وفي الهياكل القديمة الخاصة بالآلهة والآلهات الاغريقية
الرومانية . وفي كل مكان في عمان كنت ترى البنيان
قائماً على قدم وساق . ولكن الكثرة الكاثرة من اللاجئين
كانت لا تزال من غير مأوى عندما سافرت الى سورية
ولبنان على الاقل .

وفي تلك الاثناء كانت سيارتنا تخوض في المستنقعات ،
وكان المطر يُقلّم نوافذها المعتمة . وران الضباب خلفنا
على غياض من الاشجار متناثرة يقطر منها الماء وتتدلى
اغصانها السوداء مثقلة بالبراعم . والى الامام كانت الطرق
المزفة تعكس وهج أضواء سيارتنا الأمامية ، على الرغم
من ان بيننا وبين غروب الشمس ساعة او يزيد .

وانعطفت الطريق الى اليسار حول كئيب مرتفع . والى
اليمن كانت أضواء تنعبت من منخفض قائم تحتنا . وقال
العقيد مكي :

« هذه عمان . »

كانت اشبه شي، بطاسة ، فهي مدينة تحيط بها التلال باستثناء مسيلٍ ضيقٍ يمتد في ناحيتي الشمال والجنوب بحري فيه نهرٌ ضحلٌ لا يزيد عرضه على عشرين قدماً . وكان يزيد هذه الصورة - مدينة في قعر طاسة - قوةً ذلك المدرج او الامفيتياتر الروماني الضخم القائم تجاه اوتيل فيلاديلفيا مباشرةً . والى يسار فناء الفندق ، المطوق بسورٍ والمحاط بعدد كبير من سيارات الجيب المطلخة بالوحل ، المدهونة باللون الابيض ، والتابعة للأمم المتحدة ، هيكلٌ صغير كان في وقت من الاوقات مكرساً لعبادة ايزيس ولكنه ينتظم اليوم عدداً غير قليل من الاسر الفلسطينية الالاجئة التي تقوم بمهام الطبخ والغسل اليومية في كثير من الهدوء ، وكأنما كان ذلك جارياً منذ الازل ، وليس ثمرةً حديثة من ثمرات البراعة النائية .

واوتيل فيلاديلفيا - الذي يملكه آل نزال - من المباني العصرية القليلة في عمان . لقد سُيد على أسس سليمة ولكنه ليس تحفة فنية . وهو يتألف من بناء رئيسي وجناحين . وكلٌّ يرجع الى عهدٍ ويرقى الى تاريخ . وانما يحتوي الجناحان احداث الأثاث وادعاه الى الرفه . وينتظم القسم المركزي من الاوتيل المكتبَ وصالوناً صغيراً ومشربياً اصغر . وهناك في الدور الارضي غرفٌ ترقى الى عهد ابعد ، ومطعم الفندق . ويقال ان المطعم كان جيداً في فترة من الفترات ، ولكن تدفق الالاجئين وما عقب ذلك من

ازمة في الاغذية حطم معنوية المشرقين على المطبخ ، فاذا
بالمآكل التي يقدمونها الى زبائنهم خليقة بأن 'تجبل الطاهي
البحري ! وهكذا كنت تجد الاجنبي في عمان يشرب في
بار فيلاديلفيا ، ولكنه يتناول طعامه في « نادي عمان »
أو من الأغذية المعلبة . فقد كان الطعام في « نادي عمان »
هذا سائغاً مقبولاً ، وكان يمتاز بشيء نادر جداً في البلدان
الاسلامية : التنوع . فالواقع أنني حين خرجتُ من معسكرات
الجنود في الاردن وسورية كنتُ قد أكلت مقادير وافرة
من لحم الضأن والحملان حتى لقد عبت ثيابي برائحتها
وعبتُ أنا بتلك الرائحة ، وحتى لقد أمست قطعان الغنم
لا تكاد تشم ربحي حتى تجمد في أرضها وتحدق اليّ ، متسائلة
في ذهول : بأيّ حمل او خروف يذكّرها هذا الرجل الغريب ؟!
وهذه المرة ، كانت مشكلاتي اكثر إلحاحاً . كانت
الغرف كلها مشغولة . واقتضانا البحث عن سرير آوي اليه
تلك الليلة جملةً من الاسئلة وُجّهت الى النزلاء الذكور غير
المصحوبين بواحدة من النساء ، والمحتلين غرفاً ذوات سريرين .
وأخيراً وافق رجلٌ سوري يتاجر بالآلات القاطعة على أن
اقاسه غرفته ، وبذلك حلّت الأزمة . وأقنعت العقيد
مكي والنقيب الذي رافقنا في تلك الرحلة بأن يجتسبا فنجاناً
من القهوة معي ، ثم انطلقا الى القدس ونابلس عبراً اخطار
طريق من طرق الشرق الاوسط .

وكان اوتيل فيلاديلفيا ، في تلك الحقبة المرتبكة ، يذكر

المرء بـ « أوتيل سكريب » بعد تحرير باريس . كان يفص باللاجئين ،
 والمراسلين الاوروبيين ، والضباط الاميركيين التابعين للامم المتحدة ،
 والبحارة القاطنين بمهام سائقي السيارات وسعاة البريد ، وبمحنة لاسلكية
 كاملة تابعة لهيئة الامم المتحدة ، وكانت تحتل عدداً من
 الغرف في الدور الثالث (والأعلى) . والى جانب الضباط
 الاميركيين كان ثمة عدد من الضباط الفرنسيين والبلجيكين .
 وكانت روح الصداقة والتسامح بين هؤلاء المسئين مفقودة بقدر
 ما كانت مفقودة لدى النظارة في المدرج الروماني القائم عبر الطريق .
 وعلى أية حال فقد كانت البهجة تهيمن على المشرب ، في
 اوتيل فيلاديلفيا . وكان ثمة فونوغراف نقال يدير بضرب
 من الاغاني الفرنسية . ومنها تلك الاغنية المحزونة الباكية التي
 عنوانها « فتاة احببتها » . « Une jeune fille que j'aimais »
 وكانت تحيط بالمشرب بضع طاولات يجتليها عادة اثنان او
 ثلاثة من المندوبين العرب في عمان ، واثنان او
 ثلاثة من اللاجئين الفلسطينيين الذين لم يفرّوا مع عائلاتهم
 فقط ولكن مع أموالهم المنقولة ايضاً ، وستة او سبعة من
 رجال الجيش الاميركيين من مختلف الرتب ، ومراسل او
 مراسلان ، وضابط من ضباط الجيش الاردني يكون بريطانياً
 في الأعم الاغلب ، وضابط بلجيكي معني بتقويم لغته
 الانكليزية وتجويدها من طريق الحديث مع الاميركيين .
 واذاً كانت الاحوال الجوية سيئة ، في الغالب - فليس
 ينقطع المطر الا نادراً - فقد كان المشرب يفص بقصاده من

الساعة السادسة بعد الظهر حتى الساعة الثانية او الثالثة بعد منتصف الليل ، عندما يقع رجل البار صريع الاعياء ، ويحمل الى الفراش . وعلى الجملة فقد كان المشرب موطناً هادئاً الى حد معقول . صحيح ان الكولونيل الاميركي كان يرجع احياناً الى رواق الفندق بعد ليلة من السكر المبكر وليس على جسده ما يزينه غير بنطلون قصير (شورت) متيحاً بذلك لجماعة من النسوة العربيات مولعة بالحديث الموصول لحظاتٍ قصاراً من الصمت الذاهل . ولكن هذا كان لا يقع إلا نادراً .

وكان الاهتياج يتخذ سيئه اكثر ما يكون الى صالونات الدور الثاني حيث كان المقامرون من جميع مواليء البحر الابيض المتوسط يربحون ويخسرون ثروات لا بأس بها كل ليلة . وكان القوم يلعبون البوكر ، في بعض الاحيان ، وعندئذ تحل بالجيش الاميركي كارثة . لأن هذه اللعبة تخطت منذ زمن بعيد التخوم الوطنية وغربت لاعبيها من مختلف الأمم مقصيةً عن الموائد الخضر كل خوارج ضعيف . واذا كان الصينيون قد اكتسبوا شهرةً ذائعة في البراعة والدهاء ، في المحيط الهادي ، فليس من شك في ان اليونان وغيرهم من أبناء المشرق قد فازوا من ذلك بقصب السبق ، في الشرق الأوسط .

على هذا النحو كانت الحياة تجري في اوتيل فيلاديلفيا . ولم يكن ثمة غير لحظات قليلة توقع الملل في النفس ، حتى

خلال الأيام الباردة الممطرة . وكنتُ نادراً ما أفارق
الفندق او أوغل في الابتعاد عنه . وعلى مسافة نصف ميل
ليس غير كان مقرّ القيادة العليا للفرقة العربية أو الجيش
الأردني ، وكنتُ قد شققتُ طريقي الى هناك ، في
صباح اليوم الذي تلا وصولي ، وسط حشود من العرب
المتهبين حماسةً الراغبين في التطوع ، وحشود أخرى كان
أفرادها يحاولون انجاز بعض المصالح الخاصة او تحقيق بعض
الاهداف الشخصية ، وحشود غيرها أيضاً مؤلفة من فئة من
التجار أقبلت لتتقنع « إدارة المشتريات » بأن تشتري بعض
بضائعهم التي يحتاج اليها الجيش .

ولم يكن البناء الذي اتخذته القيادة العليا مقراً لها على
شيء من الفخامة . وكان مكتب المايجور جنرال جون
باغوت غلوب ، المعروف بغلوب باشا ، قائماً في الدور الثاني ،
خلفَ غرفة انتظار تنتظم عدة مناخذ ، وموقداً مستديراً
وضعت على قمته ركوة كبيرة من القهوة . وكان يجتلس
تلك المناخذ ضباط كبار ، من مثل الكولونيل ديك بالمر
والمايجور هورن ، وكلاهما مساعدٌ للبasha .

وكان في جملة الأسباب التي ترغبتني في مقابلة غلوب باشا
ان « اتحاد الصحافة في اميركة الشمالية » كان قد كلّفني
أن آخذ حديثاً منه ومن الملك عبد الله أيضاً . ومن غير
ما اشارة الى دوافعي الشخصية ، طابت مقابلة غلوب باشا
باسم « اتحاد الصحافة » المشار اليه . وهنا أيضاً ، كانت

سمعة الصحافة الاميركية في الحضيض . فليس عجبياً أن لا استقبل بلهفة مشرقة ، وأن لا أُنمَّح باديء الأمر غير نظرات من الريبة القائمة . لقد قيل لي أن عدداً من المرسلين الاميركيين حرقوا أحاديثهم مع « الباشا » تحريفاً مشوهاً الى حدٍ بعيد . وليس ثمة ما يحتمل على الاعتقاد بأنني مختلفٌ عن أسلافي من الزملاء . فما كان مني إلا أن شرعت في تبيان أهدافي مؤكداً رغبتني في خدمة العرب ، قائلاً إن مقامي في بغداد ومرافقتي للقافلة العسكرية العراقية - وكنتُ أول مرسل أجنبي أُجيز له ذلك - خليقان بأن يُثبتا أنني لستُ من زمرة أولئك الصحافيين الضالعين مع اسرائيل . وأخيراً نهض الكولونيل بالمر ، وصب لي فنجان قهوة . ثم تركني ليقابل « الباشا » . وخلال غيبته تلك دار بيني وبين المايجور هورن حديث حول معالم الآثار في شرقي الأردن . وكان المايجور هورن هذا هو ضابط المواصلات في الجيش الأردني ، ورجلاً ذا أهمية بالغة بالنسبة اليّ . فبالإضافة الى أنه مصدر السلطة الذي يتعين عليّ الرجوع اليه اذا ما احتجت الى ان استعير سيارةً من سيارات الجيب ، فقد كان يهيم على سكة حديد الحجاز ، الحلقة قبل الأخيرة من حلم « برلين - بغداد » الذي راود نخيلة الحكومة الالمانية الامبراطورية . وفي عام ١٩١٧ ادت حرب العصابات التي شنها لورانس والكتائب العربية المقاتلة معه الى ايقاع اكبر الأذى بذلك الخط . وبعد ثماني

سنوات تقريباً ، دمر ذئب نجد العجوز - صاحب الجلالة
الملك عبد العزيز بن سعود ملك المملكة العربية السعودية
اليوم - هو وقواته ذلك القسم من السكة الممتد ما بين معان
والمدينة تدميراً جعلها أثراً بعد عين . وهكذا ينتهي الخط
الحديدي الآن ، عند « النقب الأستر » على مبعدة خمسة
وثلاثين ميلاً الى شمالي العقبة .

وبعد عشر دقائق او نحوها خرج الكولونيل بالمر من « الحرم »
الداخلي وأعلن ان الباشا وافق على استقبالي . ثم إنه رافقني الى
مكتب غلوب وقدمني إليه .

وجون باغوت غلوب رجلٌ بدينٌ ، قصير ، عصبي
بعض الشيء ، ذو ابتسامة خاطفة ، ودعابة ساخرة . وهو
ذو كفاءة نادرة ، وفهم للعربية لا يقل ، باعتراف العرب
أنفسهم ، عن فهم ابناء هذه اللغة لها . وله ابنٌ سمّاه
« فارس » ، وهو اسمٌ عربي شائع ، فهو يُعرف عند
العرب (الذين تدوب اسماءهم في كثير من الاحيان في
اسماء ابنائهم أو آباءهم) بأبي فارس . ومن هنا فقد يكنى
فارس نفسه ، ذات يوم ، بابن جهان ، او ابن جون .
وعلى الرغم من ان غلوب باشا يبدو وكأنه لا يعي
ذلك ، فإنه يحمل ندبةً * مشوهة نشأت عن قذيفة انفجرت
في وجهه خلال الحرب العالمية الاولى فحطمت فكته * *

* الندبة : أثر الجرح اذا لم يرتفع عن الجلد .

** من اجل ذلك كناه العرب في شرقي الاردن بـ « أبي حنيك » .

[.المغرب]

وفيا عدا ذلك فان له وجهاً انيساً ضارباً الى الاحمرار ،
وشارباً وخطه الشيب ليس في ميسور المرء أن يقول انه
'هذب على نحو خاص او وفق طريقة بعينها . والحق انه
رحب بي في كياسة ، ولكن من غير ما حرارة بالغة .
وبشرت عملي في الحال ، فقد لمست في الجو كله شعوراً
لو اردت ترجمته الى لغة الناس لما كان غير هذا : « ليس
ثمة متسع من الوقت ، فعليك بالاجاز » .

سألت الباشا ما اذا كان الاردن سيوقع الهدنة ايضاً مع
اسرائيل . (كانت مصر قد ألقت السلاح قبيل مغادرتي
بغداد) فأجاب انه لا بدري ، ولكن يظن ذلك محتملاً .
وسأله ما اذا كان السلام سيسود ما بين العرب واليهود
بعد ان يقف النشاط الحربي نهائياً .

ففكر الباشا في ذلك اكثر من دقيقة ، وكان واضحاً
من غير ريب انه يناضل ضدّ المسارعة الى رفض الفكرة
واطراحها . واخيراً قال :

« ذلك يتوقف على اليهود وحدهم . فاذا ما سلكوا
مسلكاً حسناً وجنحوا الى السكينة ، فعندئذ يكون من
المحتمل ان يسود السلام . اما اذا ظلوا يسلكون مسلك
الفانحين الاوروبيين المتعطسين فلن يكون ثمة سلم على الاطلاق . »
وكانت قد نشرت كلمة في احدى المجلات الاميركية
الاسبوعية يفهم منها ان الاسرائيليين انزلوا بالقوات الاردنية
هزائم متكررة . فسألته عن ذلك . فشاع الدم في وجهه ،
والتمعت عيناه الزرقاوان بيريقي ضبابي ، ثم قال في وضوح :

« ان القوات الاردنية لم تكرر على التراجع إنشأً واحداً
أثناء الحرب الحاضرة . فعلى الرغم من انها لم تزد في يوم
من الايام على ٥،٥٠٠ مقاتل فقد تعين عليها ان تحمي
خطاً يزيد طوله على ٥٠٠ كيلومتراً ، من الحدود السورية الى
خليج العقبة . وليس ثمة قوة اسرائيلية ما ، استطاعت ان
تكرهنا على التراجع في أي ظرف من الظروف . »
ثم ان الباشا اشار الى بعض المغالطات التي تنشرها
الصحافة ، لا في الولايات المتحدة فحسب ، ولكن في
بريطانية ايضاً . كانت كلماته موزونة ، ولكنها تقطر غيظاً ،
وتصيب - وهذا شيء أهم - كبد الهدف . لقد عرف ،
كما عرفتُ أنا ، أن هذا الحديث لن يُنشر في الولايات
المتحدة . وعلى الرغم من ان « اتحاد الصحافة في اميركة
الشمالية » سارع الى اذاعة تفصيله برفقاً فإنه لم يبلغ غير
صفحات قليلة جداً .

بعد ذلك وجهتُ الى الباشا هذا السؤال :

« لماذا لا تجيز لي ان اصحب القوات الاردنية كمرقب ،
وأن التقط بعض الصور الفوتوغرافية ، وأبذل غاية ما
استطيع من جهد في لفت انتباه الشعب الاميركي الى بعض
الحقائق لعل في هذا ما يساعده على ان يغير موقفه من
المسألة ؟ فأنا واثق من ان بسط الحقائق للرأي العام
الاميركي بسطاً صحيحاً خليق به ان يهزّ مشاعر عدد كبير
من الاميركيين ، فيطالبوا حكومتهم بأنصاف العرب . »

وإنه ل يبدو لي عجبياً ، الآن ، أني ما أزال ، وقد بلغتُ
العقد الخامس من العمر ، مثالياً . إنَّ أحداً لم يلفت نظري
إلى ان الكذبة العاطفية أشدّ قوةً من الحقيقة المجردة ، على
الرغم من أني أنتسب إلى بلادٍ حدثت الأكاذيب العاطفية
سياستها طوال قرنٍ من الزمان ! وأياً ما كان ، فقد
رفض الباشا أن يتعهد لي بشيء . لقد قال إنه محتاج إلى
اسبوع أو اسبوعين يدرس خلالها المسألة . وهكذا انصرفت
عائداً إلى الفندق قبل أن امتطي متن إحدى السيارات
العامة إلى قيادة القوات العراقية في الزرقا .

وبلغتُ « المثلث العربي » في الوقت المناسب . كانت
أشياء كثيرة تجري هناك . وكانت هزيمة القوات المصرية قد
حررت الجيوش الاسرائيلية في الجنوب فهي تضغط في قوة
وعنف على الحدود السورية والاردنية في موازاة الانحسار
الجنوبية الشرقية من بحيرة طبريا . وبما زاد الموقف حرجاً
صعوبة الاتصال بين القوات الاوردنية والقوات السورية .
ولعل وجود القوات العراقية على تلك الحدود انقذ الشرق
الايوسط من مجاز جديد ، كمجاز دانتزيغ ، خليقٍ بأن
يجعل الحكومات العربية مهتاجة على نحوٍ موصول . وكان
واضحاً أن واضعي الخطط العسكرية الاسرائيليين رغبوا في
ان يدقوا إسفيناً يمتنق محطة روتنبرغ لتوليد الكهرباء من
مساقط المياه ، كما يمتنق امتداد نهر الاردن جنوبي بحيرة
طبريا . ولو نجحوا في انقاص خطتهم اذن لحرموا شرقي

الأردن من التيار الكهربائي ، ولأقصى نهر الأردن - الحيويّ
بالنسبة الى الحياة الزراعية في شرقي الأردن - تحت رحمة
المهندسين الاسرائيليين القادرين على ان يصدّوا النهر عن
سبيله ساعة يشاءون .

لقد كان ثمة من غير ريب وقفٌ لإطلاق النار يعدل
هدنةً كاملةً ، وليكنّ الاسرائيليين لم يكفّوا يوماً عن
تخرق أحكام الهدنة منذ حزيران من السنة الماضية . فلا
عجب اذا ما عكروا صفو الهدوء الحاضر أيضاً ، ابتغاء
الكسب والتوسع . وكان غلوب باشا قد علّق على سلسلة
المهجمات والغارات الحالية التي هدفوا من ورائها الى تحقيق
تلك الغاية بسخريته اللاذعة فقال :

« إن عهد الشرف الاسرائيلي ليس له غور ! »